
دار الكتب والوثائق
المكتبة الوطنية/ قسم الدوريات
عنوان الدورية: المعلم الجديد
العدد: الجزء،
٦ ، ١
الشهر: مجلد ٢١
السنة: ١٩٥٨

ثبت الجزء السادس مجلد (٢١)

رقم الصحيفة

حرف البـاء

١٤ تموز فى التاريخ

بقلم الدكتور نورى جعفر

يسير التاريخ العام للجنس البشرى ـ فى جوانبه المختلفة ـ وتاريخ كل شعب من شعوبه منفردا (على ما يبدو) متعرجا تختلف مستوياته فى الارتفاع والانخفاض من الناحيتين المادية والفكرية • ويشبه منظره ـ من هذه الناحية ـ منظر سطح البحر المتموج اثناء هبوب الرياح عليه • أو منظر سلسلة من الجبال تفصلها ـ وتصل بينها فى آن واحد قمم وأودية وسفوح متموجة • فالمستويات الاجتماعية المختلفة الارتفاع تمثل اختلاف مستويات الادراك الفكرى فى شتى ضروب الانسانية ـ الموجود بين الشعوب المختلفة من جهة وبين الفئات الاجتماعية المختلفة لكل شعب من جهة اخرى • وتعبر القمم الآنفة الذكر عن الأعاصير الاجتماعية الكبرى التى تظهر نفسها على شكل ازمات وانقلابات وثورات • والثورات ـ فى واقعها ـ سوط عذاب يصبه الشعب على الفئة الحاكمة الفاسدة الجاثمة على صدره لازاحتها عن طريقه ليسرع مهرولا نحو التقدم المادى والفكرى بعد أن تنطلق امكانياته وتوجه نحو خدمة الصالح العام • انها قفزة عالية وسريعة (على غرار ما تشاهده بين مهرة اللاعبين فى العاب القفز العالى فى ميدان الرياضة البدنية) للانتقال بالمجتمع من حاله المتعفنة الراكدة الى حالة انطلاق فى مسابقة الزمن لتحقيق ما يصبو اليه • والثورة عملية رحيل جماعى على غرار ما يفعله البدو فى سنى الجدب انتجاعا للغيث •

ويسير التاريخ العام للجنس البشرى ـ فى جوانبه السياسية ـ وتاريخ كل شعب من شعوبه منفردا ـ على ما يبدو من دراسته ـ متحولا بصورة

تدريجية ومستمرة من الحكم الملكي الوراثي المتفسخ الى الحكم الجمهوري الشعبي العادل • ومما يلفت النظر ان هذا التحول يحدث في أعقاب أزمات سياسية كبرى وفي مقدمتها الحروب والثورات • وانه ذو جانب واحد • ينقلب النظام الملكي الى جمهوري • ولا عكس •

وبمقدار ما يتعلق الامر بالعراق فان ١٤ تموز حد فاصل بين عهدين ـ عهد ملكي فاسد قديم وعهد جمهوري عادل حديث • عهد استند ـ في تكوينه وفي تثبيت أسسه ـ الى العنف والتجسس والغدر • وعهد يسعى رجاله الى ارساء قواعده على الكفاية والاستقامة والاخلاص • عهد مستند ـ في كيانه وفي فلسفته في الحكم ـ على مصالح المستعمرين • وعهد يستند على الشعب في كيانه وفي فلسفته في الحكم • عهد كانت ركائزه طغمة من كبار اللصوص المتفسخين والاميين • وعهد يمتاز المهيمنون عليه بالنزاهة والتماسك الخلقي وبالثقافة العلمية الحديثة • لقد كان العهد القديم يحمل بين طياته عوامل انحلاله :ـ نظام ملكي فاسد وفئة حاكمة جاهلة متفسخة متخمة بالمال والجاه والنفوذ من جهة واكثرية مثقلة بالواجبات راسفة بالاغلال المدية والفكرية ومحرومة من أبسط الحقوق السياسية والاقتصادية من جهة ثانية • يقابل ذلك ـ من الناحية الاخرى ـ فئة متعلمة انقسمت بدورها الى معسكرين :ـ التصق أحدهما بالحاكمين واضعا امكانياته الفكرية تحت تصرفهم مقابل ما يحصل عليه من فضلات المال والجاه والنفوذ • وفئة اخرى التصقت بالشعب وشاركته الحرمان والتعرض لشتى صنوف المضايقة والتعذيب •

لقد كانت الدولة العراقية في عهدها الملكي البائد امتدادا للحكم العثماني الممقوت المبني على مبدأ العبث والدس فاستمدت منه مقوماتها وبسببه زالت

عن الوجود . فكانت الفئة الحاكمة ـ فى العهدين ـ فى حالة حرب مع الشعب تطمينا لمصالحها بأضيق صورها وأبشع أشكالها . وكان موقف الشعب من الفئة الحاكمة العراقية ـ وهى فى دور الاحتضار ـ كموقفه من العثمانيين وهم فى دور احتضارهم . فكأن انهيار الدولة العثمانية لم يخرج عن كونه استبدال فئة حاكمة بفئة اخرى من جنسها . وكان جهاز الحكم العراقى فى العهد الملكى البائد مركبا تركيبا عجيب الشكل من الناحية السياسية والادارية. وكانت المناصب الكبرى فى الدولة تمنح للاشخاص (الا ما ندر) اذا توافرت فيهم شروط معينة فى مقدمتها القدرة على خدمة جهاز الحكم الفاسد عن طريق التلون والنفاق والتباكى على المصلحة العامة نظريا وهدمها من الناحية العملية . وكان الموظفون الكبار والساسة فى الاعم الاغلب يحملون قلبين فى جوف كل منهم : قلبا أوجده الاستعمار واذنابه لا يعرف التميز بين الحق والباطل بل يدرك مصلحة الاستعمار ويسعى لتطمينها على حساب مصلحة الشعب . وقلبا آخر توقظه أحيانا صيحات التذمر من سوء الاوضاع حرص صاحبه على خنقه حتى فى ساعات الخلوة واختفاء الرقباء . وكان هؤلاء الاشخاص كأحجار الشطرنج تنقلهم أصابع الاستعمار الخفية من مكان الى مكان ومن عمل الى آخر كثيرا ما يكون أرقى من مستوياتهم الفكرية وأبعد ما يكون من اختصاصهم . وكان غرض الاستعمار من ذلك أن يبقى هؤلاء تحت سيطرته بصورة مستمرة عن طريق جعلهم غرباء ـ فكريا ـ عن حقول عملهم فيزداد اعتمادهم على المستعمر وتكثر تضحيتهم فى سبيل خدمته على حساب مصلحة الشعب .

ترى هل كان باستطاعة الفئة الحاكمة فى العهد الملكى البائد أن تسلك غير الطريق التى سلكتها فى ادارة شؤون الشعب ؟ اننا نميل الى الاجابة بالنفى عن هذا السؤال . لقد كان أسلوبها ـ كما ذكرنا ـ امتدادا لاسلوب الحكم

عند اسلافها العثمانيين • وكان ذلك الاسلوب فى جوهره منبثقا من طبيعة الأوضاع الاجتماعية العامة للفترة التاريخية التى حكموا الناس أثناءها • كما انه عمل بدوره على تثبيتها • فهو منبثق من طبيعة ظروفه من ناحية ومثبت لها من ناحية اخرى • أى أنه كان نتيجة لها وسببا من أسباب استمرارها فى آن واحد • والجانب السلبى لما ذكرنا هو انه لم يكن مستطاعا أن يستمر الحكم العثمانى بجميع تفاصيله زمنا أطول من الزمن الذى استغرقه بالفعل • فقد استنزف العثمانيون جميع أمكانياتهم فى الحكم • ثم طواهم التاريخ مع موبقاتهم • وأصبحت الاوضاع العامة الجديدة فى العراق منذ مطلع القرن الحاضر لا تنسجم مع الذهنية العثمانية فى الحكم (بجميع تفاصيلها) • فقد تسلم العراقيون الحكم من العثمانيين وساعدتهم على التخلص من العثمانيين ظروف عامة معروفة من الناحية التاريخية قبل الحرب العالمية الاولى واثناءها • ولم يستطع العثمانيون ـ بحكم استنزافهم جميع امكانياتهم فى الحكم من الناحيتين الداخلية والخارجية ـ أن يحافظوا على كيانهم السياسى العام كما ذكرنا • فتصدع ذلك الكيان واختفى عن الوجود •

ويلوح للباحث أن الظروف العامة للمجتمع العراقى فى الفترة الواقعة بين اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى وفجر الاثنين ١٤ تموز كانت ملائمة لمزيد من العبث والدس لم يستطع العثمانيون ـ كما ذكرنا ـ النهوض به لاستنزافهم جميع امكانياتهم فى الحكم • فكأن الظروف الاجتماعية العامة كانت مهيأة لظهور عثمانيين من نوع جديد • وعندما استنزف جهاز الحكم فى العهد الملكى البائد جميع امكانياته وأخذ كفاح الشعب يتجه نحو تحطيم اطار الحكم نفسه منذ أزمة السويس والاعتداء الثلاثى على مصر قبل زهاء عامين التقت أمانى الشعب بآمال الجيش فسهل على الجيش أن يجهز على الهيكل الرهيب بضربة قاصمة سددها الى رأسه فجر الاثنين • وهذا يعنى

أن الثورة الحقيقية بدأت – فى أذهان أفراد الشعب – عندما أخذ المتظاهرون ينادون بسقوط الملكية المنهارة والاستعاضة عنها بالنظام الجمهورى الحديث .

وما عمل الجيش المظفر بقيادة زعيمه الخالد عبدالكريم قاسم الا الجانب العملى الذى نقل الثورة من أذهان أفراد الشعب الى حيز الوجود من الناحية العملية .

ذكرنا أن النظام الملكى الفاسد قد انهار لانه استنزف جميع امكانياته فى الحكم . ونقصد بذلك أن ذهنية الحاكمين ووسائلهم فى الحكم لم تعد ملائمة لطبيعة الظروف التى كانوا يحكمون اثناءها من جهة ولم يكن باستطاعتها أن ترتفع الى مستوى الاحداث العامة من جهة اخرى . أى أن هناك – بعبارة اخرى – تناقضا بين طبيعة المشاكل الكبرى الراهنة وبين ذهنية الفئة الحاكمة . وهذا يعنى ان الفئة الحاكمة حاولت أن تتغلب على مشاكل كبرى بأساليب عتيقة لم تعد ملائمة لمواجهة تلك المشاكل دع عنك التغلب عليها . ومثلها فى هذا الشأن كمثل طبيب حديث يحاول التغلب على نزيف حصل فى دماغ أحد الاشخاص عن طريق الحجامة أو الكى الذى كان شائعا فى ايام الجاهلية . فالقومية العربية المتحررة والقضاء على نفوذ الاستعمار وأذنابه وعلى الفساد فى جهاز الحكم أمور لم يكن تحقيقها مستطاعا الا بعد حادثة الاثنين . هذا مع العلم ان حادثة الاثنين حلقة (كبرى بالطبع) فى سلسلة الاحداث المتعاقبة فى تاريخ العراق الحديث . فليست هى ظاهرة شاذة عن سير الاحداث وانما هى نتيجة حتمية منطقية لتطورها . والفرق بينها وبين الحلقات التى سبقتها فى سلسلة الحوادث (الازمات السياسية والانتفاضات والاضرابات والمظاهرات التى شاهدها العراق منذ بدء كيانه الفاسد) انها – كما ذكرنا – اتجهت نحو تحطيم الاطار العام للحكم فى حين

أن زميلاتها دعت الى اصلاح جهاز الحكم ضمن أطاره المفسخ العام ، هذا مع العلم ان الوضع العام في العراق لم يصل الى ما وصل اليه – في حادثة الاثنين – الا بعد أن استنزفت الدعوة الى اصلاح جهاز الحكم ضمن اطاره المتفسخ العام جميع امكانياتها ، وكانت الاحداث العامة حبلى بمولود لم يعرف الناس اسمه ولا ساعة ميلاده بالضبط ، وعندما تمخضت الاحداث تولدت عبدالكريم قاسم في فجر الاثنين انهار النظام الفاسد القديم ليحل محله النظام الجمهوري الجديد .

لقد كانت الانتفاضات التي سبقت حادثة الاثنين شبه اختبار لموازنة قوى الشعب بامكانيات الفئة الحاكمة البائدة الامر الذي جعل كل منهم يرقب الاخر بعين الحذر ويسعى للاجهاز عليه في الفرصة المواتية ، وكانت حصيلة ذلك اراقة كثير من الدماء وتعطيل كثير من المرافق والامكانيات ، لهذا نجد حادثة الاثنين خلوا من ذلك لأن ضحاياها سبقتها في موكب الانتفاضات الآنفة الذكر ، فلا غرابة اذن اذا ما أنجز الاجهاز على النظام الفاسد القديم في أقل من ساعتين على حين أن عملية الاجهاز بدأت في أعقاب الحرب العالمية الأولى وانتهت بحادثة الاثنين ، ولعل ذلك يتضح كثيرا اذا ما انتبهنا الانتفاضات المختلفة التي حصلت في أماكن شتى من العراق في أزمنة مختلفة من تاريخه الحديث – قبل حادثة الاثنين – بعملية تسلق يقوم بهما أحد الفلاحين في جنوبي العراق لاقتطاف اليانع من ثمر النخيل ، أما حادثة الاثنين فهي عملية الاقتطاف ذاتها التي حصلت بنتيجة عملية التسلق في مراحلها المختلفة ، ولا يخفى أن عملية الاقتطاف في الحالتين يجب أن تتحلى بالسرعة والاتقان من الناحيتين الزمانية والمكانية وأن تركز الجهود – في الحالتين – على المواطن الحساسة الامر الذي يجعل عملية الاقتطاف سهلة وبخاصة اذا